

## الفصل السابع

### مشكلة تقلص وظائف الأسرة المعاصرة

- ١ - هل تقلص الوظائف نوع من التفكك الأسري؟
- ٢ - تقلص الوظائف والإنتاجية الاقتصادية .
- ٣ - تقلص الوظائف : ماله وما عليه .
- ٤ - الوظيفة الأساسية للأسرة الحديثة : « الميلاد الثاني » .
- ٥ - التنشئة الاجتماعية .
- ٦ - الدراسة النفسية الاجتماعية للأسرة .
- ٧ - ترتيب الاخوة من حيث المكانة .

obeikandi.com

## الفضل السابع

### مشكلة تقلص وظائف الأسرة المعاصرة

١- هل تقلص الوظائف نوع من التشكك الأسرى؟

تقوم الأسرة بمجموعة من الوظائف الجوهرية وهي كلها وظائف اجتماعية بمعنى أن هناك تداخلا وتفاعلا مع أبنية المجتمع . ويقسم البعض هذه الوظائف الى مجموعتين متميزتين ، الأولى هي الوظائف الفيزيائية (أو المادية) وهي على سبيل المثال : التكاثر ، والوظيفة الاقتصادية ، ووظيفة الحماية . . . إلخ . والمجموعة الثانية هي الوظائف الثقافية والعاطفية والاجتماعية ، مثل : تكوين الفرد عن طريق الثقافة والتربية والتنشئة الاجتماعية ، وازدهار ورفاهية كل عضو من أعضاء الأسرة .

وكانت الأسرة الممتدة فيما مضى ، وخاصة في النظام القائم على الاقتصاد الريفي ، تقوم بمجموعة الوظائف الفيزيائية . وكذلك وظائف التكوين والتنشئة الاجتماعية ، وأصبح هناك من الآن فصاعدا أطراف أخرى تتدخل لتمارس هذه الوظائف المختلفة بدلا من الأسرة ، أو بالتعاون معها .

وتحولت الوظيفة الاقتصادية من وظيفة إنتاج إلى وظيفة استهلاك ، حتى أن المنتجات الخام في البيئات الريفية لم يعد يتم تحويلها في المنزل إلى سلع صالحة للاستعمال ، فقد أصبحت الصناعة تتولى هذه المهمة بشكل مطرد . وتلمس بوضوح أن الاتجاه العام لتطور عمليات تجهيز وإعداد المنتجات الغذائية والملابس والمعدات المنزلية يسير نحو جعل تلك المنتجات جاهزة للاستهلاك مباشرة . ويتحدد شكل المنتجات المعروضة للاستهلاك عن طريق دراسات السوق وعن طريق البحوث الاجتماعية التي تحاول تحقيق الاستجابة لرغبات الجمهور . ومن هذه الزاوية يمكن القول بوضوح بأن تأثير الأسرة على توجيه الصناعة أصبح تأثيرا كبيرا .

أما الوظيفة التي تحتكرها الأسرة دون أي مؤسسة أو نظام آخر فهي وظيفة الإنجاب . فالنسبة الغالبة من المواليد يولدون داخل أسر ، ولا تزيد نسبة المواليد خارج نطاق الأسرة ( أي من

علاقات جنسية غير مشروعة) عن ٦٪ في المتوسط في المجتمعات الغربية ولكنها تقل عن ذلك كثيرا في المجتمعات التقليدية .

ولكن حتى في هذا المجال الذي يبدو لأول وهلة فرديا تماما نجد أن هناك طرفا ثالثا يملك اليوم تأثيرا حاسما ممثلا في الدولة ، فالدولة تستطيع عن طريق سياستها الأسرية ( والسكانية ) وحسب احتياجاتها وانجماهات سياستها العامة أن تشجع المواليد وأن تساعد الأسرة الكبيرة العدد ( وذلك من خلال تقديم إعانات عائلية ، وإعانات للسكن ، ومنح تخفيضات ضريبية ، وتخفيضات في وسائل المواصلات ، وميداليات للأسر الخ ) . أو على العكس من ذلك تستطيع الدولة أن تضع برامج لتخفيض عدد المواليد ( عن طريق تشجيع تحديد النسل ، وإباحة الاجهاض ، وحملات التعميم . . الخ ) وذلك إذا كانت زيادة أعداد السكان تخم ذلك في بعض البلاد النامية مثلا . أما وظيفة الحماية (كالدفاع عن الحريات ، والحماية الجسدية ، والوظيفة الوقائية والصحية ) والتي تم ممارستها بالتضامن بين الجماعة الأسرية الممتدة ، فإن هناك مؤسسات متعددة تقوم بها ويتيسر للجميع الاستفادة من التقدم العلمي وخاصة في المجال الصحي . وحتى في مجال العناية التي تم في المنزل ، فإن الدولة تتدخل لكي تشجعها وتيسرها وذلك عن طريق وضع أنظمة للتأمينات الاجتماعية ، فتحمل الجزء الأكبر من مصاريف المرض أو الوقاية الصحية ، ويحل تضامن الأمة - لصالح الأسرة - محل التضامن القرابي الذي كان موجودا في الماضي ، وذلك عن طريق القيام بإعادة وزيادة متوسط العمر ، وتحسين مقاييس النمو الفيزيقي ( الوزن وطول القامة ) إنما تدل على فعالية هذه الاجراءات جميعا .

وقد أصبحت وظيفة التعليم هي الأخرى وظيفة تمارسها الدولة .

قد جعلتها اجبارية بالنسبة للجميع . وهي تنشئ المباني المدرسية وتعد المعلمين وتعينهم ، وتقدم المنح والمكافآت الدرامية لكي تخفف من آثار عدم المساواة في الدخول وتحقق تكافؤ الفرص في التعليم على قدر الإمكان . ولكن الأسرة لا يمكن أنها تلتق بعينها كاملا على الدولة في هذه الوظيفة فقد اتضح من الخبرة ضرورة قيام التعاون الوثيق بين الآباء والمؤسسات التعليمية سواء في وضع البرامج والمناهج وفي التوجيه أو في علاج المشكلات النفسية ومن هنا تتضح لأهمية المتزايدة لجمعيات الآباء التي تقوم في المدارس لتحقيق التعاون بين هيئة المعلمين وبين آباء التلاميذ .

ولكن الأسرة تمثل بيئة لا تعوض بالنسبة للتربية بمعناها الدقيق ، ولتكيف الطفل لصبح عضوا فعالا في المجتمع ، وتنمية شخصيته وقدراته الخاصة . وقد تكفلت بتوضيح تلك الحقيقة

الهامة عشرات الدراسات الحديثة في علم نفس الطفل<sup>(١)</sup> . وهكذا نرى الأسرة قد أصبحت أخيراً في شكلها الحديث المكان الذي يجد فيه الرجل والمرأة - بعد تحررها من عوامل القهر الاجتماعي - ملاذاً من وحدة المجتمع . ويتجهان عن طريق الاتصال والتعاون نحو الرخاء بمفهومه الحديث<sup>(٢)</sup> .

ويشير التراث العلمي في الاجتماع العائلي إلى تلك الظاهرة باسم « تقلص وظائف الأسرة » . وواضح من ظاهرة التسمية أن المؤلفين الكلاسيكيين الذين سجلوا هذه الظاهرة قد اتخذوا منها موقفاً سلبياً . أو على الأقل اعتبروا فيها تهديداً يمثل خطورة على مكانة الأسرة وعلى مستقبلها . إذ أننا يمكن أن نجد من يخلط بسهولة بين « تقلص الوظائف » و « تقلص الأسرة » . ومن هنا نطرح على أنفسنا نفس السؤال : - هل يمكن القول بأن تقلص وظائف الأسرة في المجتمع المعاصر يمكن أن يؤدي إلى نوع من التفتك الأسري<sup>(٣)</sup> .

إذا جاز القول بأن التخصص وتقسيم العمل يؤدي إلى تفتك المجتمع الحديث ، فإنه يمكن القول بنفس القدر بأن تقلص وظائف الأسرة يمكن أن يؤدي إلى تفتك الأسرة ولكننا رأينا كيف أن التخصص وتقسيم العمل في المجتمع قد أدى إلى تدعيم التضامن الاجتماعي على نحو لم يشهده المجتمع الإنساني من قبل ، كذلك نقول أن تقلص وظائف الأسرة قد حول أعضائها إلى مجموعة من الشخصيات المستقلة التي لا سبيل أمامها للوجود والحياة داخل إطار واحد سوى تكوين شبكة

(١) تناولت أعمال سبيتز Spitz في نيويورك وبولي Bowlby في لندن والزيابيث رودينسكو E. Roudinesco في باريس تطبيق المفاهيم المتخصصة للبحثة للتربية والتي تسمى « تربية الأطفال بالجلسة » كإطفال دور التربية والاصلاحيات والملاجئ وغيرها من مؤسسات رعاية الأطفال في عتاجر السياق الأسري . واتضح من تلك الدراسات أن الأطفال الذين تنوم بترتيبهم مريبات متخصصات وفقاً لقواعد تربية رشيدة ، ولكن بدون حب الأم ووعايتها المباشرة ينمون أقل من الناحية الفيزيائية (تأخر في الوزن ، وتأخر في النمو كما يختلف نموهم الفكري والحلوق والاجتماعي . إذ أن تعرضهم للمرض والوفاة يكون أكبر منه لدى الأطفال الذين يتمنون بوجود الأم . الأسرة وحدها هي التي يمكن أن تلبى احتياجات الطفل ، بأن تقدم له بيئة عاطفية يكون الحنان فيها « قيتانياً نفسياً حقيقياً للنمو » ، على حد تعبير جاك سايران J. Sabran . وهي التي توفر للطفل بيئة محصنة تتم فيها التجارب التربوية بأخطار مخففة فهي تقدم المناخ المناسب لعملية التنشئة الاجتماعية . كما أوضحت الملاحظات التي سجلها شيلدون وجولوك عن العلاقة بين جناح الأحداث وعدم الاستقرار في الطفولة والمراعاة الأخطار التي تتلها الأسرة المفككة والدور للفيد الحاسم الذي يؤديه التنغم بين الآباء بالنسبة لأبنائهم . عليه شكري فصل في كتاب دراسة علم الاجتماع ، ص ٢٣٢ - ٢٥٤ ، وكذلك المراجع الواردة هناك والتي أشارت إليها في المتن .

(٢) اعتمدت في المرض السابق على مقال سايران الذي سبقت الإشارة إليه ، والمنشور ترجمته في كتاب دراسة علم

الاجتماع . خاصة ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

(٣) انظر مناقشة ريبه كونيج لهذا الموضوع في دراسته عن الأسرة .. المنشورة في :

جديدة من علاقات التآلف الحميمة التي تنهض على أساس من الاقتناع والعاطفة لم يكن له نظير في الأسرة من قبل ، لأنه وليد ارادة مستقلة وليس وليد حاجات مادية أو اجتماعية ملحة . وسنعود إلى هذه النقطة في كلاسا عن مزايا التقلص الوظيفي وعيوبه ولكننا نكتفي بأن نجيب عن لسؤال السابق بتأكيد أن هذا التقلص لا يعنى بالضرورة حدوث نوع من التثكك الأسرى

## ٢ - تقلص الوظائف والإنتاجية الاقتصادية :

ونقول لأولئك الذين يأسفون لتقلص وظائف الأسرة . إذا كان هذا التقلص يمثل ظاهرة سلبية فكيف يفسرون هذا الارتفاع الهائل في الإنتاجية الاقتصادية للمجتمعات التي حققت قدرا أكبر من هذا التقلص ، وهي أساسا المجتمعات الصناعية المتقدمة . ونكمل تلك الملاحظة بأخرى نلمسها بوضوح شديد ، وهي أن الاعتماد الكبير على معونة الأسرة ومساندتها للفرد في كل نواحي حياته قد أدى - خاصة في المجتمعات التقليدية (ككثير من البلاد النامية) - إلى قتل أو تعويق المبادرة الفردية .

وتلك حقيقة مؤكدة لا يستطيع أن ينكرها أحد أويشك فيها ، وتسمى تلك الظاهرة بالتطفل الأسرى Family Parasitism حيث يستغل الأعضاء الكسالى والعاجزون في الأسرة التضامن الأسرى لتحقيق مصلحتهم والحفاظ على مكانتهم على حساب بقية الأعضاء النشطين . فتحدث في نهاية الأمر حالة من التساوى لا تفرق بين العضو النشط والعضو الخامل من حيث عائد الجهد أو تقدير هذا الجهد .

ولاشك أن ظاهرة ، « التطفل الأسرى » تعد في كتابات علم اجتماع التنمية من أخطر العوامل التي تعوق جهود التنمية في العالم الثالث<sup>(٤)</sup> . ومن هنا كان حرص كبار المصلحين في الصين ( منذ ص يات صن وحتى ماوتسى تونج ) على اضعاف كيان الأسرة الصينية الكبيرة القديمة لصالح عملية التنمية الاقتصادية ، وقد صاغت تلك الاتجاهات عديدا من الاجراءات والوسائل السياسية والتشريعية لتحقيق هذا الغرض<sup>(٥)</sup> .

(٤) وقد أوضح محمد الجوهري كيف تؤدي هذه الظاهرة إلى جعل الملوك الاقتصادى في البلاد النامية جامدا في طابعه العام ، بمعنى أن يقتصر النشاط الاقتصادى على تلبية احتياجات الشخص واحتياجات أقاربه الذين يقوم على اعالمتهم ، وهم في الغالب أعضاء في نفس الجماعة المحلية . ولذلك يؤدي هذا الوضع التميز الى نتيجة خطيرة ذات آثار بعيدة : إذ نجد الانسان في تلك المجتمعات يستجيب لأى زيادة في الدخل بنفض الجهد الاقتصادى المبذول ، انظر : د . محمد الجوهري ، علم الاجتماع وقضايا التنسية في العام الثالث ، دار المعارف . ١٩٧٨ . ص ص ٤٣ وما بعدها خاصة ص ٤٤ .

(٥) انظر رينيه كونيغ . الأسرة في المجتمع المعاصر . مرجع سابق صفحة ٧٠ .

ورغم أهمية العمل في اضعاف وتعويق جهود التنمية الاجتماعية الشاملة ، فإنه لم يلبثت إليه الباحثون الالتفات الواجب . وقد انتهت إليه بشكل مكثف أغلب الحركات الثورية في المجتمعات التي يسود فيها نظام الأسرة الممتدة . حيث حرصت تلك الحركات على الاستفادة من الطابع الفردى الذى أخذ يسيطر على الأسرة . وكذلك الاستفادة من كل نتائجه في الانتفاع بجهود النساء والأطفال في عمليات التنمية . فكان تحرير أفراد الأسرة من سيطرة الكبير عبارة عن تعبئة كاملة لكل القوى العاملة لخدمة عمليات التنمية والتطوير الاقتصادى .

ولذلك يرى البعض أن المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة أتاحت فرصا متكافئة لكلا الجنسين للعمل في النشاط الاقتصادى المنتج . وقد حرص الاتحاد السوفيتى ، والمانيا الديمقراطية ( الشرقية ) والصين على السير في هذا الاتجاه مجندين أقصى طاقات الرجال والنساء ( بل والصبيان ) للعمل المنتج في كافة قطاعات النشاط الاقتصادى والاجتماعى . ولقد مرت كل تلك المجتمعات وأمثالها في بادئ أمرها بفترة « التعبئة القسوى » ، من أجل تجنيد كل أبناء المجتمع للعمل الاقتصادى المنتج . وقد جعل الحزب وجعلت الدولة ذلك الهدف هو واجبا الأول . بل تذهب بعض مراجع التنمية إلى القول بأن الهدف الأكبر للقانون الأسمى الصينى ( قانون الأحوال الشخصية ) منذ الخمسينيات وحتى الآن - هو خلعة التنمية الاقتصادية وتعقب كل مظاهر التطفل الأسمى بقصد القضاء عليه تماما<sup>(٦)</sup> .

### ٣ - تقلص الوظائف : ماله وما عليه :

لعله قد اتضح من كل الدرامات التقليدية والحديثة للأسرة أن المؤسسات المتخصصة الحديثة تستطيع أداء كل ( أو على الأقل أغلب ) الوظائف التى كانت تؤديها الأسرة في الماضى بنفس الكفاءة ، إن لم يكن بشكل أكفأ ومن هنا يصبح من المنطقى أن تتساءل هل بعد ذلك يمكن أن نعتبر نغلى الأسرة الحديثة عن بعض وظائفها تدهورا للأسرة ؟

لاشك أن هذه النتيجة الواضحة تؤكد لنا أن هذه الظاهرة لا يمكن أن تعد تقلصا حقيقيا للأسرة ولا تدهورا لمكانتها . خاصة إذا أضفنا إلى هذا بروز الوظيفة الحقيقية للأسرة واتضحها أكثر فأكثر مع الوقت وأعنى وظيفة بناء الشخصية الاجتماعية الثقافية للفرد . أى وظيفة التنشئة الاجتماعية وكذلك التربية العاطفية للفرد وتغذيته بالأحاسيس والمشاعر التى تكفل له مغالبة

(٦) انظر المرجع السابق ، صفحة ١٥٥ ، وكذلك المرجع الواردة هناك .

التوترات ومواجهة الأزمات ، ولا توجد أى مؤسسة اجتماعية أخرى يمكن أن تؤدي هذه الوظيفة بمثل هذه الكفاءة أو حتى بكفاءة قريبة منها .

وهكذا توصل روبرت ما كيفر إلى هذه النتيجة الهامة التى يؤكد فيها بوضوح : « لما فقدت الأسرة وظيفة بعد أخرى عثرت فى النهاية على وظيفتها الحقيقية . فقد أصبحت رابطة أولية أصح فيها الزوج والزوجة أبا وأما ، تربط بينها رابطة بسيطة . تذكىها عاطفة خالصة نقية تبدأ فى حب الوالدين والأطفال . ولا يمكن أن تجرد تلك العواطف تعبيرا حرا عنها الا فى ظل هذه الأسرة الموحدة . . . كلما نما المجتمع الحلى ، كلما اتجهت الأسرة إلى اتخاذ هذا الشكل الموحده<sup>(٧)</sup> . وهكذا يحتم علينا أن نقوم هذه الظاهرة تقييما جديدا فى ضوء هذه الاعتبارات والمفاهيم الحديثة . يضاف إلى هذا بعد آخر وهو أن كل التغيرات والتعدلات التى طرأت على ظروف الأسرة لممتدة لا تصدق إلا على الفئات العليا المتميزة سياسيا واقتصاديا ، فهى أساسا التى كانت تعرف هذا النظام . أما الطبقات الدنيا فهى فى الغائب الأعم لم تعرف منذ الأزل سوى نظام الأسرة النووية . ومن الطبيعى أنه إذا كانت تلك الأسرة النووية الضعيفة لا تملك شيئا . فأنها لا يمكن بالتالى أن تفقد شيئا ، وهى لهذا ظلت بعيدة عن تيارات التغير العنيف . ولذلك فإن تقلص الوظائف لم يصب فى الحقيقة سوى الأسر الكبيرة . ومن هذا لا يمكن أن نعتبره قانونا عاما أبدا<sup>(٨)</sup> .

#### ٤ - الوظيفة الأساسية للأسرة الحديثة ( الميلاد الثانى ) :

أوضحنا من قبل أن الوظيفة الحقيقية للأسرة تتمثل فى بناء وتكوين الشخصية الثقافية الاجتماعية للإنسان فى إطار جماعة صغيرة تتميز علاوة على هذا بأن أفرادها تجمع بينهم مشاعر وأحاسيس شديدة الألفة والقوة . ولكى نفهم أثر تلك الجماعة حق فهمه يجب علينا أن نرجع إلى تراث الأنثروبولوجيا الثقافية الحديث وإلى المعارف الغزيرة التى كشف عنها هذا العلم الحديث . فهى توضح لنا بكل جلاء أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بعد مولده أكثر من ساعات قليلة دون مساعدة الغير . وذلك على خلاف أغلب الفقريات العليا ، التى تولد شبه « جاهزة » أو مستعدة للحياة معتمدة على نفسها دون مساعدة كبيرة من ذويها<sup>(٩)</sup> .

(٧) Robert M. Maciver, *The Elements of Social Science*, London, 1921, P. 162.

(٨) انظر مزيدا من التفاصيل عند كونيغ . دراسات فى علم الاجتماع العائلى . مرجع سابق .

(٩) وقد قرر مالمينوفسكى بوضوح أنه : « كلما ارتقى الحيوان فى مدارج التطور . كلما ازداد عجز الصغير الوليد وازدادت

حاجته إلى رعاية وتدريب طويل من والديه . » انظر :

Malinowski, B. «Marriage», in: *Encyclopaedia Britannica*, Chicago, London etc. 1962, P. 930.

ويدلنا ذلك على أن البقاء البيولوجي للإنسان يخضع في جوهره للظروف والاعتبارات الاجتماعية التي تصيغه وتكيفه . وهنا تبدأ الوظيفة الحقيقية لمجاعة الأسرة والتي لم يكن هناك أى مؤسسة أو نظام آخر يستطيع أن يحققها ولا حتى بشكل جزئى . خاصة في فجر الإنسانية .

ولهذا السبب ينتهى عالم مثل رينيه كونيج إلى القول بأن الميلاد البيولوجي للفرد ليس هو الأمر الحاسم في وجوده واستمراره وإنما العامل الحاسم هو « الميلاد الثانى » أى تكونه كشخصية اجتماعية ثقافية تنتمى إلى مجتمع بعينه وتدين بثقافة بذاتها . والأسرة هى صاحبة الفضل في تحقيق هذا « الميلاد الثانى » (١٠) .

#### ٥ - التنشئة الاجتماعية :

تم عملية تكوين وإعداد الشخصية الإنسانية للحياة في المجتمع على مرحلتين أساسيتين هما :

(أ) مرحلة النشئة أو تنسيق القوى والاستعدادات البيولوجية والنفسية وغيرها بحيث يصبح الفرد مهياً لعملية التنشئة الاجتماعية (١١) .

(ب) عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها .

ومن العناصر الأساسية التي تقوم على تحقيقها مرحلة النشئة للتنشئة الاجتماعية تنمية القدرات الأساسية - التي تكون في حالة كمن أو قصور عند الولادة - وكذلك بذر البذور الأولى لثقافة الإنسان في نفسه وتكوين ايقاعات الحياة الأساسية التي يختلف شكلها اختلافاً بعيداً من ثقافة لأخرى (كالجوع ، والعمل ، والاسترخاء . والنوم والعطش ، والأمن الجسمى والنفسى . . إلخ) . وكذلك تدريب الفرد على النظافة بمفهومها الواسع . وتعد العملية الأخيرة من أصعب عمليات التنشئة لما تنطوى عليه من تنظيم عمليات اخراج البول والبراز ، وتضطلع بالنور الأكبر ،

(١٠) القى رينيه كونيج الضوء من مختلف الزوايا على ذلك المفهوم في كل مؤلف من مؤلفاته التي اشرنا إليها مراراً في هومش هذا الكتاب . خاصة المؤلفات الحديثة التي ظهرت منذ أوائل السبعينات  
(١١) صاحب هذا المفهوم ، والذي يرجع الفضل في التمييز بين هاتين المرحلتين على النحو الذى حددناه هنا هو ديتير كلايسنر ، انظر مؤلفه الرئيسى :

وربما الوحيد - في انجاز مرحلة النشئة هذه والإشراف عليها الأم. (١٢).

وتتمثل المرحلة الثانية صلب عملية التنشئة الاجتماعية الحقيقية والتي تعد ايدانا بل دخول الفرد عالم العلاقات الاجتماعية المنظمة . وهنا يبدو بأقصى درجة من الوضوح مدى ضخامة وتنوع تأثير الأسرة على الفرد . ويمكن أن نلخص هذه العملية بقولنا : أن أعماق طباع الفرد وشخصيته تتكون من خلال هذه المرحلة في الفترة من السنة الأولى حتى السنة الرابعة من العمر ، وذلك في نطاق الأسرة الضيق ، أي في مجال العلاقات بين الطفل ووالديه واخوته وأقاربه المقربين الذين يشاركون الأسرة معيشتها داخل نفس البيت .

ولا يصح أن نفسر ذلك الحكم العام تفسيراً خاطئاً بأن نذهب في تأويله إلى الاعتقاد بأن المراحل التالية من حياة الفرد لا تضيف إلى شخصيته وإلى طباعه شيئاً حاسماً ، بل العكس هو الصحيح : فكل خطوة يخطوها الصغير خارج نطاق الأسرة الصغيرة تفتح أمامه آفاقاً جديدة للحياة ، وتدفعه إلى عمليات جديدة مستمرة للتنشئة الاجتماعية وإعادة التنشئة . فالتعلم واكتساب خبرات جديدة لا يتوقف حتى مراحل الشيخوخة المتأخرة ، ولكنه يظل صحيحاً مع تأكيدنا أن أيا من تلك الخبرات ، أو عمليات التنشئة التي يمر الفرد بها يمكن أن يصيبه بنفس العمق الذي أصابه به خبرات الطفولة الأولى التي اكتسبها داخل دائرة الأسرة الصغيرة في سنوات العمر الأولى .

وقد ساهم فرع علم النفس الاجتماعي المختص بالأسرة في إثراء معلوماتنا عن تطور عملية التنشئة الاجتماعية والعالم المختلفة لمراحلها وأطوارها المتنوعة ، كما شارك في القاء الضوء على هذا

(١٢) وقد تمت أهم البحوث في هذا الموضوع منذ الثلاثينيات في الولايات المتحدة تحت إشراف الأنثروبولوجي الشهير رالف لنتون ، وتأثير من بحوثه وتوجيهاته . وقد تحققت الاضافة الكبرى في هذا المجال في نطاق الأنثروبولوجيا الثقافية . ونذكر من أشهر الأسماء في هذا المجال :

كلايد كلاكهون ، وهنري ماري ، ودالميد شيلبر وغيرهم انظر :

— Clyde Kluckhohn, Henry A. Murray and David M. Schneider. (eds.), *Personality in Nature, Society and Culture*, 2nd edition, New York, 1953.

— Abraham Kardiner, *The Individual and His Society*, New York, 1939.

— A. Kardiner, R. Linton, C. du Bois and J. West, *The Psychological Frontiers of Society*, New York, 1945.

— Douglas G. Haring (ed.) *Personal Character and Cultural Milieu*, Syracuse, 1949.

— Hans Christoffel, *Trieb und Kultur*, Basel, 1944.

— R. Koenig und Axel Schmalzfuss, (ed.) *Kultur-anthropologie*, Dusseldorf, 1972.

ولا ننسى أن نضيف إلى هذه القائمة المؤلفات الهامة التي نشرتها روث بنتلكت ومرجيت ميد ، والتي حوت هي الأخرى إسهامات هامة حول الموضوع ، وقد سلفت الإشارة إلى بعضها في حواشي هذا الكتاب .

الموضوع دراسات التحليل النفسى فى العقود الأخيرة . وقلعت إضافات غنية إلى معلوماتنا عن تطور عملية التنشئة الاجتماعية<sup>(١٣)</sup> .

#### ٦ - الدراسة النفسية الاجتماعية للأسرة :

الدراسة النفسية الاجتماعية للأسرة فى أساسها دراسة نفسية لإحدى الجماعات الصغيرة الهامة وهى تبدو السمة المميزة لتلك الجماعة الصغيرة فى أن الرابطة التى تجمع بين أفرادها - علاوة على صور التفاعل الأخرى - عبارة عن رابطة قوية من الحب . وأن بعض أفرادها ( وهم الأطفال ) قد جاءوا من نسل أفراد آخرين فى تلك الجماعة ( وهم الوالدان ) . ولذلك يمكن القول دون مغالاة أن العلاقات الأساسية داخل الأسرة تتم فى الحقيقة على المستوى العاطفى أساسا . فالطفل يكسب الإحساس بالأمان إزاء نفسه وإزاء العالم وإزاء الأطفال والكبار المحيطين به من خلال إحساسه بالانتماء المأمون إلى جماعة صغيرة تخضع عليه هذا الإحساس بالأمن فى صورته المباشرة . ويمكن القول بأن احتياج الطفل إلى الأمن من الضخامة ، والشدة بحيث أنه يؤدي إلى خلق نوع من الإحساس السلبي بالملكية . فهم يشعرون أنهم بمثابة ملكية خاصة لبعض الكبار المحيطين بهم ، والذين تربطهم بهم طائفة من العلاقات الخاصة المتميزة فى طبيعتها ويلعب هذا الأمن دورا هاما فى التأثير على استقرار وتوازن نمو الشخصية الفردية ، ولكن شرطه الأساسى - كما نعلم - أن يلقى قبولا من الوالدين .

وقد اهتم التحليل النفسى اهتماما خاصا بدراسة موضوع ارتباط الأطفال بالأب والأم اللذين يختلف دورهما عن بعضها اختلافا كاملا .

(١٣) شهدت العقود الأخيرة زيادة هائلة فى دراسات علم النفس الاجتماعى المتصلة بالأسرة . ونشير فيما يلى إلى بعض الأعمال البيولوجية وكب المدخل العامة فى الموضوع ، واتى تحرى بدورها اشارات إلى مئات من المؤلفات ، انظر

— Edward Zigler and Irvin L. Child, «Socialization» in: Gardner Lindzey and Elliot Aronson (eds.), *The Handbook of Social Psychology*, Vol. III 2nd edition, Reading, Mass, 1969. (PP. 450-589).

— John A. Clausen, (ed.), *Socialization and Society*, Boston, 1968.

— David A. Goslin, (ed.) *Handbook of Socialization: Theory and Research*, Chicago, 1969.

— Elton B. McNeil, *Human Socialization*, Belmont, Calif., 1969.

— Roland A. Hoppe, G. Alexander Milton and Edward Simmel (eds.) *Early Experiences and the Processes of Socialization*, New Yorkk and London, 1970.

— Walter R. Heinz, «Sozialisationforschung auf der Suche nach Theorie», in: *Kolmer Zeitschrift für Soziologie und Sozialpsychologie*, Nr. 26, 1974.

— Wilfried Gottschalch et.al, *Sozialisationforschung*, Frankfurt, 1971.

انظر مزيدا من التفاصيل حول هذا الموضوع عند كونيج ، الأسرة فى المجتمع المعاصر ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ -

فالأب يكون تركيزه الأساسي على الأدوار «العملية» ، بينما تركز الأم على الأدوار «العاطفية» والحقيقة - من وجهة نظر التحليل السوسولوجي لهذه القضية - أن لكل طفل والدين ، يمثل كل منهما بالنسبة له نصف المجتمع ، الأم عن الإناث والأب عن الذكور<sup>(١٤)</sup> . ولكننا نجد في الواقع العمل أن بعض الآباء يميلون إلى التقليل من خطورة دورهم أو تقديره أدنى ما هو جديد به من اهتمام فزاهم يقصرون في أداء هذا الدور . ولهذا صاغ ميشيرليش Mischerlich تعبير (الأب المحتجب) The unseen father<sup>(١٥)</sup> .

ومن النتائج المترتبة على هذا التعلق الشديد من الأطفال بآبائهم أن يحدث في بعض الأحيان ما اسماء العالم الألماني الأستاذ رينه كونيغ المغالاة في الترابط الأسرى ، ، وتحدث هذه الظاهرة عندما تتأخر أو أحيانا قنع عملية انفصال الأبناء من الأسرة وخروجهم منها بعد اكتمال نموهم وانتهاء تأهيلهم للعمل والمعيشة المستقلة . ويمكن أن تؤدي هذه الظاهرة في بعض الأحيان إلى خلق اضطرابات نفسية عنيفة لدى الأبناء أو بعض أفراد الأسرة .<sup>(١٦)</sup>

(١٤) انظر على وجه الخصوص :

— Morris Zelditch, Jr., «Role Differentiation in the Nuclear Family», in: T. Parsons and R. Bales (eds.) *Family, Socialization and Interaction Process*, Glencoe, Ill., 1955, PP. 307-351.

وقد أكدت البحوث الاميريكية معظم الأفكار النظرية الواردة في الدراسة السابقة ، وأيدتها بشكل بارز . انظر كذلك :

— Edward C. Devereux, Jr. Urie Bronfenbrenner and George C. Succi, «Patterns of Parent Behaviour in the United States of America and the Federal Republic of Germany, in: *International Social Science Journal*, 14, 1962-1963, PP. 488-506.

(١٥) ويمثل هذا التعبير عنوان مقال (بالألمانية) لهذا المؤلف ، انظر :

Mischerlich, «Der unsichtbare Vater», in: *Kolner Zeitschrift*, Nr. 7, 1955, PP. 188-201.

كما نشر ميشيرليش مقالا آخر في المجلة السابقة بعنوان «نحو مجتمع بلا آباء»

Auf dem Wege zur vaterlosen Gesellschaft

كذلك أشار مارويون لين (الابن) بحق الى أن أطفال اليوم ينشأون في مجتمع اليوم ونتيجة لغياب دور الأب الفعال عن الأسرة

في مجتمع من النساء أساسا . انظر في ذلك مقاله :

M. Levy, Jr., «Geschlecht Generation und Modernisierung» in: *Sonderheft 14 Kolner Zeitschrift für Soziologie und Sozialpsychologie*

وانظر أيضا :

Gunther Luschen und eugen Lupri (eds.) *soziologie der Familie*, Opladen, 1970, PP. 433-442.

(١٦) تناول رينه كونيغ هذه الظاهرة في فصل مستقل بعنوان :

Überorganisation der Familie

وذلك في كتابه دراسات في علم الاجتماع العائلي ، مرجع سابق .

انظر أيضا :

Horsl—Eberhard Richter, *Eltern, Kind und Neurose*, Hambury, 1969

—, *Patient Familie*, Hamburg, 1972.

ومن الجدير بالذكر أن هذه العملية تتم على المستوى الحيواني من خلال سلوك وأفعال معينة تستهدف تحقق هذا الغرض . انظر

كونيغ الأسرة في المجتمع المعاصر ، مرجع سابق ، ص ص ١٠ - ١١ وكذلك المراجع الواردة هناك .

## ٧ - ترتيب الإخوة من حيث المكانة :

من الواضح أن الجماعة الأسرية لا تنمو إلا من خلال الزوجين والأطفال لذلك يشير موضوع ترتيب ولادة هؤلاء الأطفال والتفاوت بينهم ، في المكانة عدديدا من التساؤلات والقضايا والمشكلات ، ومنذ وقت طويل وموضوع مكانة الطفل يمثل موضوعا لأعداد لا تحصى من البحوث .

ويرتبط هذا الموضوع أول ما يرتبط بدخول الطفل في جماعة الكبار داخل الأسرة ، ثم تطور مجموعة أخرى من المشكلات عند ولادة أطفال آخرين من نوع مخالف لنوع الأطفال الموجودين فعلا في الأسرة (كأن يكون الأطفال الموجودين فعلا كلهم ذكور ثم تولد بنت أو العكس) من هذا مثلا أنه يتحتم على الطفل الأول أن يشترك مع إخوته الأصغر منه في عاطفة الوالدين ، التي كان يستأثر بها وحده في الماضي قبل ميلاد هؤلاء الإخوة<sup>(١٧)</sup>.

ويرجع الفضل إلى عالم النفس التحليلي النمساوي إدار Adler في الإشارة لأول مرة إلى اختلاف مكانة الأبناء حسب تسلسلهم داخل الأسرة ، أي الطفل الأول والطفل الثاني والثالث . الخ فالثالث هو الذي يحول الطفل الثاني إلى طفل متوسط . كذلك تختلف مكانة الطفل الأصغر عن موقعه في سلسلة الأبناء ، فيأخذ مكانه الطفل الأول أو « الحيلة » في حالة ما إذا ولد بعد فترة زمنية طويلة تفصله عن الأولاد . هنا يستحوذ على اهتمام الوالدين وسائر أفراد الأسرة وعلى الرعاية والتدليل الذي كان يحصل عليه الطفل « البكرى » . وذلك مجرد فاصل زمني كبير بينه وبين ميلاد آخر طفل . فيكون لدى الوالدين من الوقت والاهتمام والرغبة في تدليله كما لو كان طفلهم الأول<sup>(١٨)</sup> .

وجوهر تلك المشكلة أن أبناء الأسرة يدخلون في سباق للاستئثار - داخل نطاق الأسرة

(١٧) انظر على سبيل المثال المقال التالي :

Robert R. Sears, «The Ordinal Position in the Family as a Psychology Variable», in: *American Sociological Review*, Nr, 15, 1950, PP. 397-401.

(١٨) يجد القارئ المعالجة الكلامية لهذه المشكلات عند :

Alfred Adler, *Menschenkenntnis*, 5th edition, Zurich, 1947 (1st. edition 1925).

أما المعالجة الحديثة للموضوع فنجدها في أحسن صورة عند تومان ، انظر :

— Walter Toman, *Familienkonstellation*, 2nd edition Munchen, 1974.

— W. Toman and Siegfried Preiser, *Familienkonstellationen und ihre Störungen. Ihre Wirkungen auf die Person, Ihre sozialen Beziehungen und die nachfolgende Generation*, Stuttgart, 1973.

المحدودة - بعاطفة الوالدين . ولا يمكن أن يخلو هذا السباق من ظهور أزمات ومشكلات بين الأبناء فيما بينهم من ناحية . وبينهم وبين الوالدين من ناحية أخرى . لأن الاستئثار بعاطفة الوالدين يعنى فى نهاية الأمر الحصول على أسباب القوة ومقومات المكانة داخل الأسرة . كما يرتبط بهذا الموضوع تقسيم الأبناء من حيث النوع ( ذكور وإناث ) خاصة فى المجمعات العربية التى تخلف على الأبناء الذكور مكانة وأهمية تفوق الإناث ، وانعكاسات ذلك الوضع على علاقات القوة داخل الأسرة . وعلى نظام الميراث . . . إلخ . وتعالج كل تلك للمشكلات اليوم تحت عنوان « التكتلات الأسرية Family Constellations » على نحو ما تشير الدراسات المذكورة فى الحاشية الأخيرة ، خاصة مؤلفات توماس وبرانزر .